

سوداوية الأفق في قصيدة مأساة الحياة نازك الملائكة

د. هامل شيخ

المركز الجامعي بلحاج بوشعيب-عين تموشنت

حسب القدماء سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره؛¹ أي يفطن إلى ما لا يفطن إليه سائر الناس، من أين يأتيه العلم الذي ينفرد به؟ من تابع غيبي يملي عليه أبياته فلا ينطق بالشعر بمحض إرادته، وإنما مدفوعا بقوة ليس بمقدوره صدها، ليس هو صاحب القول لأن القائل الفعلي شيطان يتقمصه ويتكلم على لسانه، مع تكون الامبراطورية العربية وما صاحبها من تحولات ثقافية لم يعد الشاعر ناطقا باسم تابع ولم يعد بالتالي محط علم خارق، تلاشى التابع وغاب عن الوجود، ما كان يبدو سرا غامضا صار محل دراسة وتمحيص من قبل العروضيين والبلاغيين والنقاد، لم يعد الشيطان إلا ذكرى أدبية، ربما صار العالم شيئا ما فاترا بعد اختفاء الشياطين الملهممة.²

انطلاقا من هذه العتبة المعرفية نحاول أن نحلل قصيدة مأساة الحياة للشاعرة نازك الملائكة من منظور معجمي؛ أي إحالة المعجم على دلالات تتجاوز المتن الشعري فالمفارقة الموجودة بين الأفق الذي يحيل إلى الأمل التطلع، الحياة، الفضاء المشع بالسعادة، وصفة السواد التي تحيل إلى عتمة العيش واغتراب الذات وقهر النفس.

لم تكن نازك الملائكة مدفوعة بعلم خارق ولا شيطان ملهم لكنها شربت من كؤوس الاغتراب الشيء الكثير، فجاء شعرها سيلا متدفقا من المشاعر والصور والمشاهد المبهرة بتميز تجربة نازك في استحضار عوالم خفية تجسد -الى حد بعيد- عمق النفس الإنسانية التي ترسم بدقة الحركات والسكنات في بحر حياة الإبداع.

إن دراسة الشعر محدودة النتائج فطرة الدلالات لأننا لا نستطيع تصيد اللحظة الشعرية المعاشة من طرف الشاعر، نحن نكابد للعثور على الأثر الشعري لا غير، لحظية الشعر تجعلنا نلهث وراء سراب الكلمات، فما كتب خطأ في الديوان ليست الأحاسيس والنبضات وإنما هي سفينة الكلمات على مرفأ الورق.

عتبة العنوان:

يربط العنوان في النص الشعري، بالشعر وحركته وشائج قوية، فالخلفيات الفكرية والفنية التي تحرك العنوان هي خلفيات الشعر ومحركاته.³ ويعد العنوان بؤرة أساسية، وذلك بانطلاق من فرضية كونه عنصرا ضروريا وليس ثانويا، إذ هو المنطلق والنص هدفه، ولذلك كانت له الأولوية primauté على باقي عناصر النص، وهذه الأولوية ذات وجهين، فالعنوان ليس فقط هو أول ما نلاحظ من الكتاب /النص في شكله المادي، ولكنه عنصر سلطوي منظم للقراءة، ولهذا التفوق تأثيره الواضح على كل تأويل ممكن للنص⁴، كما أن العنوان بنية دالة من بنيات النص ونسق من أنساقه اللغوية. وما هو في الواقع إلا بنية أولى لدخول عالم النص واقتحامه؛ انطلاقا من نظرية التواصل يحيل العنوان إلى وظائف متعددة كالوظيفة المرجعية (السياق) والوظيفة الإفهامية (المرسل إليه) والوظيفة الشعرية (الرسالة).⁵

وهكذا هي نازك الملائكة في عنوانات دواوينها شظايا ورماد عاشقة الليل قرارة الموجة شجرة القمر اغلب عناوينها جاءت بصيغة الإضافة المحضة (عاشقة الليل - قرارة الموجة - شجرة القمر - مأساة الحياة) في حين أن عنوانا واحدا جاء

بصيغة الجملة الاسمية المعطوفة، وهو (شظايا ورماد). كما إن العنوان، الرئيس لدواوين نازك كان قد رافقه في بعض الأحيان عنوان تجنيسي، كما هو الحال في ديوانها (مأساة الحياة) إذ أدرجت تحته عنوانا آخر هو (مطولة شعرية) ويعد هذا العنوان تجنيسا لتجنب خلط النوع، فيما كانت المقدمة بقلم الشاعرة تعد من ضمن العتبات أيضا، حيث أن المقدمة عتبة تلحق بالعنوان⁶.

اختيار الشاعرة نازك الملائكة عنوان الديوان (مأساة الحياة وأغنية الإنسان) له ما يبرره في المتن الشعري حيث نلاحظ مقابلة بين المأساة والاغنية أي بين الحزن والاحتفاء والاحتفال، بالرجوع إلى زمن القصيدة نجد أن الشاعرة نظمت قصيدة مطولة عنوانها مأساة الحياة بين سنتي 1945 و1946م يعني قبل ديوانها (عاشقة الليل) الذي نشر عام 1947م.

قالت الشاعرة " لقد كانت مأساة الحياة، صورة واضحة من اتجاهات الرومانسية التي غلبتني في سن العشرين وما تلتها من سنوات وكان من مشاعري إذ ذاك التشاؤم والخوف من الموت وهما مفتاح هذه الصورة، في عام 1950م كان أسلوب شعري قد تطور تطوراً كبيراً عما كان أيام نظمي للمطولة، فأصبحت موارد الأديبة أغزر وأسلوب أكثر صورا وثقافتي أغنى، فلم أعد راضية عن مأساة الحياة، لذلك قررت أن أعيد نظمها من جديد"⁷.

تقول الشاعرة في بداية القصيدة:

عَبثاً تَحْلُمِينَ شَاعِرَتِي مَـ	من صباحٍ ليلِ هذا الوجود
عَبثاً تَسْأَلِينَ لَنْ يُكْشِفَ السَّر	ولن تَنْعَمِي بِفِكِ القِيُودِ
في ظلالِ الصَّفصافِ قَصَّيْتِ سَاعَا	تَكِ حَيْرِي تُمْضُكِ الأَسْرَارِ
تَسْأَلِينَ الظَّلَالَ وَ الظِّلَّ لا يَـ	لَمْ شَيْئاً وَتَعْلَمِ الأَقْدَارِ
أَبداً تَنْظِرِينَ لَأُفَقِ المَجْدِ	هولِ حَيْرِي فَهَلِ تَجَلِّي الخَفِيِّ؟
أَبداً تَسْأَلِينَ والقَدْرِ السَا	خَر صَمْتُ مُسْتَعْلِقٍ أْبْدِي ⁸

أفق الشاعرة مجهول، شموعه لا تضيق دهاليز النفس الساخرة، فالحلم والمتعة عبث تقهره الظلال المعتمة، أجواء من الحيرة تطبع فترات من عمر هذه الفتاة، يقول عز الدين إسماعيل:

"في شعرنا المعاصر استفاضت نعمة الحزن حتى صارت ظاهرة تلفت النظر، بل يمكن أن يقال أن الحزن صار محورا أساسيا في معظم ما يكتب الشعراء المعاصرون من قصائد (...). وقد استفاضت هذه النعمة حتى أثارت كثيرا من المناقشات والجدل في المنتديات الخاصة وأبرز ما يوجه إلى هذه النزعة التي استفاضت هو أن الشعراء قد صاروا يلحون على إبراز جانب واحد من الحياة هو جانب القتامة فيها"⁹.

تفصح الشاعرة عن سوداوية نظرتها للحياة في مقدمة الديوان وذلك بقولها: "وسرعان ما بدأت قصيدي وسميتها مأساة الحياة وهو عنوان يدل على تشاؤمي المطلق وشعوري بأن الحياة كلها ألم وإهمام وتعقيد وقد اتخذت للقصيدة شعارا يكشف عن فلسفتي التي تجاري كلمات الفيلسوف الألماني شوبنهاور"¹⁰ التي يقول فيها "لست أدري لماذا نرفع الستار عن حياة جديدة كلما أسدل على هزيمة وموت"¹¹ ويقال كذلك أن هذه النزعة الحزينة في شعرنا المعاصر ليست إلا نوعا من التأثر بأحزان الشاعر الأوروبي الحديث الذي عاين طغيان الحضارة المادية على الروح الغربي بخاصة في القرن العشرين ولا يمكننا في الحقيقة أن ننكر التأثير

المباشراً وغير المباشر لشعر أ. اليوت وهو يتسنى قمة الموجة الناعية على الحضارة الأوروبية المعاصرة أفقار الروح فيها وبخاصة قصيدة (الأرض الخراب) وقصيدة (الرجال الجوف)¹².

عبت قصيدتها تغدق على القارئ باعترافات الحزن الأولى حيث تقول: "كان الموت يلوح لي مأساة الحياة الكبرى، وذلك هو الشعور الذي حملته من أقصى أقاصي صباي إلى سن متأخرة"¹³.

أفق الشاعرة:

أفق نازك الملائكة معتم، تحده الضبابية والسوداوية، الفضاء الذي توفره القصيدة يمنح مساحة ملائمة للتعبير عن تجربة نفسية مريرة، مقهورة، شعور يطلب السعادة فلا يجدها، السعادة وحلاوة الحياة في نظر نازك خدعة وسراب نظارده في كل حين ولحظة، نسعى دائما لإقتناص المتعة لكننا لا نفلح في ذلك، بل نجد الألم واليأس والقهر؛ هي مفردات رتبت الشاعرة بما كل زوايا غرفها المظلمة، إذا أردنا إحصاء المفردات الدالة على سوداوية الأفق من خلال عتبة العنوان سنجد منها الكثير، ففي الديوان في جزئه الأول نجد العناوين التالية: الحرب العالمية الثانية- عيون الأموات- البحث عن السعادة- مأساة الشاعر- كآبة الفصول الأربعة أنشودة الأموات- مرثية الانسان- مأساة الأطفال- أحزان الشباب- الرحيل- عاشقة الليل- ذكريات ممحوة- الحياة المحترقة- بين فكي الموت- مرثية غريق- على حافة الهوة- نعمات مرتعشة- المقبرة الغريقة- الخطوة الأخيرة- صوت التشاؤم.، ما لاحظناه هو ان الشاعرة استهلكت ديوانها بقصيدة عنونها: مأساة الحياة وختمته بقصيدة عنونها: مرثية في مقبرة منسية . نجد تناغما بين العنوان مأساة الحياة والتمن الشعري المتوفر تقول نازك:

ليس منهم الا قبور حزينا *** ت أقيمت على ضفاف الحياة¹⁴

يذكرنا هذا البيت بما قاله المعري:

إن حزنا في ساعة الموت *** أضعاف سرور في ساعة الميلاد

ترتسم سوداوية شعر نازك في مواضع كثيرة من المطولة :

كيف يا دهرُ تنطفي بين كَفِّيك *** الأمانى وتحمد الأحلام؟

ليس غير الأوهام تسخر مني *** ليس إلا تمزق واضطراب

لم يزل عالم المنية لغزا *** عزّ حلاً على فؤادي الحزين¹⁵.

يحلينا المعجم الشعري الى قطع مهمة في صنع نوع التجربة وطبيعة الافق المرسوم في نظم الشاعرة حيث نلاحظ المفردات التالية : قبور- حزينات- تنطفى- تُحمد- الأوهام- التمزق- الاضطراب- المنية- الحزين.

عندما نقابل العنوان بالنص الشعري تتجلى لنا الادبية من خلال لذة قراءته، ما يسميه بارث لذة النص le plaisir du texte وهذه اللذة لا تتحقق بالقراءة الفيلولوجية التي تسعى أساسا إلى ضبط المعنى الحرفي للنص، بل هي قراءة مؤسسة على قواعد التضمن والتباسات القول الأدبي¹⁶.

الأنا الحزين:

تقول الشاعرة:

ري إلى أين سوف تمضي الحياة	***	هكذا جئت للحياة وما أد
سهول حَيْرَى تلهو بيَ الظُّلْمَاتُ	***	وسأحيا كما يشاء لي المج
مع الموتُ أو يمدُّ السنينا	***	ان تمنيت أن أعيش فما يس
حم حلمي ولست ألقى المنونا	***	أو تمنيتُ أن أموت فما يُر
توم لا ما تريده آمالي	***	هكذا، ما يريده القدرُ المح
سَى سفيني؟ وعند أيِّ رمالٍ؟	***	سيرتني الحياةُ أين ترى مَر
بين ماضٍ ذَوَى وَعُمُرٍ يمرُّ	***	ها أنا الآن حيرةٌ وذهولٌ
آه لو ينجلي لعيني سرُّ ¹⁷	***	لست أدري ما غايتي في مسيري

يبدو الأنا النصي من خلال هذه المقاطع تعيسا، تائها، متطلعا تارة، خائبا في أحيان كثيرة، الأنا محملة بشعور قوي ينبع من الأعماق، ليفجر كل ما يتنافى مع عالمه مستكينا الى الأماني والأحلام التي تبددها سوداوية الحياة، نلاحظ ان الأنا تعيش في صراع بين الحزن والتطلع والمقاومة والاستسلام.

عوامل كثيرة أسهمت في تشكيل غربة الشاعرة الاجتماعية واضطرتها إلى الاعتزال، وصولاً إلى غربة نفسية قاسية. ولعل تلك الغربة هي التي كانت وراء تأصيل موقف نازك من الليل، والوجود، والموت، والإيمان، والحب، وهي الموضوعات التي وسمت غريتها في رحلتها الشعرية الأولى واستمرت بعد ذلك إلى حين، ترسمت نازك خطى بعض الشعراء الرومانسيين في الاحتماء بالليل، والهرب من النهار.¹⁸

سوداوية أفق الشاعرة، تتجاوز عتبات المعجم الشعري، لتلامس رحابة العالم المختلف، الذي رسمه نازك نظما، بعرف حزين مفعم بألحان تراود شعور الفرد الذي يتأمل الحياة بمنظور مختلف غير نمطي، بإحساس يترقب- بخوف- العالم المجهول الذي يخفي- وفق رؤية الشاعرة- خيبة وسوادا.

الهوامش:

1. وردت هذه الفكرة في الكثير من الكتب ، راجع: القيرواني أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1981، 05، ج1/ص.116.

2. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والارتياح، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2007، 01، صص 5-6.

3. محمد التونسي حكيب، إشكالية مقارنة النص الموازي وتعدد قراءته عتبة العنوان نموذجًا، مجلة جامعة الأقصى جمادى الأولى 1427 هـ/ يونيو 2006 م (عدد خاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي الأول لكلية الآداب /جامعة الأقصى) النص بين التحليل والتأويل والتلقي (المنعقد يومي الأربعاء والخميس في 5-6 أبريل 2006، ص507.

4. eo HOEK, la marque du titre:, dispositifs sémiotique d'une pratique textuel, ed mouton, lahaye, paris, new yourk, 1981: p1-2

نقلا عن : محمد التونسي حكيب، إشكالية مقارنة النص الموازي وتعدد قراءته عتبة العنوان نموذجًا، ص.507.

5. علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط2000، 01، ص.136.

6. ضياء راضي الثامري، العنوان في الشعر العراقي المعاصر أنماطه ووظائفه، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد التاسع، العدد الثاني، 2010، ص.17.

7. ديوان نازك الملائكة، دار العودة بيروت، لبنان، المجلد الأول، 1997 ص ص 9-10.
8. نازك الملائكة، الديوان، ص ص 21-22.
9. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، ط3، ص 362.
10. أرتور شوينهاور (1860 - 1788) م (فيلسوف ألماني، معروف بفلسفته التشاؤمية يرى في الحياة شراً مطلقاً، فهو يبجل العدم وقد كتب كتاب العالم فكرة وإرادة الذي سطر فيه فلسفته التي يربط فيها العلاقة بين الإرادة والعقل فيرى أن العقل أداة بيد الإرادة وتابع لها .أرتور_شوينهاور <https://ar.wikipedia.org/wiki>
11. نازك الملائكة، الديوان، ص 04.
12. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، ص 354.
13. نازك الملائكة، الديوان، ص 07.
14. المصدر نفسه، ص 24.
15. المصدر نفسه، ص 24.
16. علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري، ص 144.
17. نازك الملائكة، الديوان، ص ص 28-29.
18. ينظر، محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر-مرحلة الرواد-، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 1999، ص 10.